

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الثالثة - العدد الثاني عشر - شتاء ١٣٩٢ هـ / كانون الأول ٢٠١٣ م

صص ١٠٦ - ٨١

مفهوم الحرية بين النقد والدراسة قراءة تحليلية مقارنة في كتابات مطاع صفدى وسارتر أنموذجا

أحمد رضا حيدر يان شهري*

منير زيبائي**

الملخص

الوجودية اصطلاحاً تيار فلسفي وأدبي يعتمد على الحرية الفردية والمسؤولية والنسبية، وتؤكد هذه الفلسفة التي يكون فيها الفرد أساساً لأيّ تغيير وتطور على مصير الفرد وحرية. إنّ إشاعة هذه الفلسفة عبر الأدب سببت في وقوع فكرة الوجودية في مركز انتباه الكتاب السوريين وجعلتهم يعالجون في أدهم قضايا مثل: الحرية، والقرار، والاختيار، والمسؤولية والالتزام. وقد مال "مطاع صفدى" أكثر من الكتاب الآخرين إلى هذه الفلسفة وتأثر بـ"سارتر" وأفكاره الوجودية خاصة بمواقفه الثورية تجاه الحرية الفردية؛ وبناءً على هذا يعتبر صفدى الإنسان مسؤولاً عن مصيره والمخالف الوحيد لقيمه، وهو الذي يجب أن يحقق حرية اعتماداً على ذاته فحسب. إنّهُ لا يرفض في هذا السياق العلاقة مع الآخرين رفضاً تاماً بل يقبل ذلك في إطار خاص ويرى أنّ الالتزام العام لا يقضى على خصوصية الفرد، ولكنه يغطي سوابه وتناقضاته.

تعالج هذه المقالة دراسة مفهوم الحرية من وجهة نظر صفدى بمنهج تحليلي مقارنة، وتبرز مدى تأثير هذا الكاتب السوري بأفكار سارتر في إظهار مفهوم الحرية في كتاباته وبيّن كلفيته

المفردات الدليلية: الوجودية، الوجود، الإنسان، الحرية، صفدى، سارتر.

heidaryan@ferdowsi.um.ac.ir

*. أستاذ مساعد بجامعة فردوسي في مشهد، إيران.

** طالبية مرحلة الدكتوراه بجامعة فردوسي في مشهد، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هادي نظري منظم

تاريخ القبول: ١٣/١٠/٩٢

تاريخ الوصول: ١٠/٣/٩٢

المقدمة

الحرية مفهوم من المفاهيم الكبرى التي تحكم وعى الإنسان فتتحرك مشاعره وتوجّه فعله، وهى لذلك من المفاهيم التي يصعب تحديدها تحديداً جامعاً ومانعاً، نظراً لتأثرها بالخبرة الاجتماعية وارتباط معانيها بجملة من المفاهيم المسبوقة. فلها مفاهيم عدة تختلف على حسب زاوية الرؤية التي ننظر منها لهذا المصطلح. والحقيقة أن الحرية من مقومات بقاء واستمرار الإنسان والمجتمعات البشرية ولا نبالغ إذا قلنا إن الإنسان لا يحيا بدون الحرية. فالكائن البشرى لا يستطيع الاستمرار فى حياته بدون هذا العامل؛ فيحتاج إلى الحرية ليؤكد من خلالها إنسانيته وكرامته. ولذلك نرى البشرية منذ وجودها، وهى فى كفاح ونضال مستمرين من أجل الوصول إليها وامتلاكها والحفاظ عليها.

ولقد سعى الأدب كما سعت الفلسفة والديانات إلى تقديم تصور محدد عن الحرية ظناً منها أنها تجلب الأمن والطمأنينة وتحرر الإنسان من العبودية. ممن تصدوا لهذا الموضوع وعرضوا لدراساتها هم الكتاب الوجوديون خاصة الفرنسي "جان بول سارتر" الذى أعلن أنه المدافع الأول عن الحرية الفردية. بدأت الثقافة العربية تتعرف على سارتر وأدبه منذ الخمسينات، وفتنت أفكار سارتر والمفاهيم الوجودية فى أعماله الأدبية كالتزام، والحرية، والاختيار، والمسؤولية بعض الكتاب السوريين، وهى مفاهيم تستجيب لما كان يتطلع إليه المثقف العربى لتدعيم تطلعاته القومية ذات الأفق التحررى والمضمون الاجتماعى الاشتراكى. وبما أن مطاع صفدى كان من أبرز الكتاب القوميين الذين لقيت أفكار سارتر الوجودية ترحيباً بالغاً عندهم، وكان لموقف سارتر الثورى إزاء الحرية الفردية، ودعوة الإنسان إلى تحمل مسؤولية مصيره معتمداً على ذاته أثر مباشر فى تبنى صفدى لهذا المفهوم فى كتاباته، فيُطرح سؤالان؛ الأول: ما مدى تأثير صفدى بسارتر فى فكرة الحرية؟ والثانى: كيف تجلّت هذه الفكرة وانعكست فى روايات صفدى؟ وللإجابة عنهما يحاول المقال إلقاء الضوء على حرية صفدى من خلال روايته: "جيل القدر" و"ثائر محترف"، ثم يدرس الفكرة ويقارنها بحرية سارتر المنتشرة فى أعماله ك"الغثيان" و"الأيدى القذرة" و"الذباب" و"سن الرشد" ليصل إلى أن صفدى

كان تلميذا لسارتر في فكرة الحرية، ولفهم معنى حرّيته علينا أن نعود ونستند إلى سارتر وأفكاره في هذا المجال.

خلفية البحث وضرورته

الحرية من أهم الموضوعات الفلسفية التي شغل الباحثين من قديم الزمان وما برحت تؤرق مفكرى اليوم. فقد كتب عنها كثيرا وقد اهتم الباحثون بفلسفة سارتر وأدبه بوصفه المدافع الأول عن الحرية الفردية، ومنهم سعاد حرب في كتابه "الأنا والآخر والجماعة" حيث ألقى فيه الكاتب الضوء على فكرة الحرية عند سارتر، كما ألف حبيب الشارونى كتاباً باسم "فلسفة جان بول سارتر" ودرس فيه حرية سارتر من مختلف الجوانب. وهناك كتاب لعللى حنفي محمود بعنوان "قراءة نقدية في وجودية سارتر"، حيث تحدث فيه الكاتب عن الحرية وتطورها في فلسفة سارتر، وألف جنويو إيد كتاباً بعنوان "تفسير على غثيان سارتر" الذي قد ترجم إلى الفارسية على يد محمدتقى غياثي، كما ألف آيريس مردوك كتاب "دراسة ونقد روايات جان بول سارتر" واهتم فيه بتحليل ودراسة أفكار سارتر في رواياته. هذا بالنسبة إلى سارتر وأما عن صفدى وتأثره بأفكار سارتر فقد ألف الكاتب السوري نفسه كتاباً عن الحرية باسم "الحرية والوجود" وما جرت في أدبه من الأعمال والدراسات لاتعدى مقالات توزعت في الصحف والمجلات أو بحوث وردت في ثنايا الكتب وهي تدرس سمات عامة لرواياته؛ منها كتاب "اتجاهات القصة في سورية" لإبراهيم الأطرش، و"روايات تحت المجهر" لحسام الخطيب، ودراسات في الرواية السورية في مجلة الموقف الأدبي.

إذن هناك دراسات عدّة لأدب سارتر وصفدى، كما تطرّق كثير من الدارسين إلى موضوع الحرية في فلسفة سارتر وأدبه، ولكن لم يجد كاتباً هذا المقال دراسة تعالج تأثر صفدى بأفكار سارتر الوجودية أو التي تتناول بوجه خاص موضوع الحرية في روايات هذا الكاتب السوري. ولهذا يحاول المقال التطرّق إلى هذا الموضوع.

إن معرفة صفدى لفلسفة الغرب وآرائه الثورية حول الحرية عرفّته إلى قرّاءه من غير العرب كمفكر وجعلت النقاد والباحثين يغفلون قصص الكاتب ورواياته التي

تتضمن أفكاره وتعكس تأثره بفلسفة الغرب وفلاسفته خاصة سارتر. ومن هذا المنطلق وجدنا ضرورياً تقديم البحث من هذا المنظار.
لننظر إلى حياة كاتبين نريد دراستهما نظرة عابرة ثم ندخل في الموضوع الرئيس للمقال.

نبذة عن صفدى وسارتر

صفدى

كان مطاع صفدى (?-١٩٢٩) من المفكرين البارزين في تنظيم حزب البعث العربي الاشتراكي خلال فترة الخمسينات، ومن العاملين لإعادة الوحدة بين سورية ومصر. قد برز إلى ميدان الفن القصصي منذ عام (١٩٥٣م) بقصته "صفعة سوط". وحاول -وهو من أقوى الأصوات المتبنية للاتجاه القومي في الخمسينات والستينات- اتكاءً على معرفته بفلسفة الغرب، العثورَ على عقائديه ضد الماركسية في الفلسفة الوجودية، ولا سيما في أفكار سارتر وكامو، التي انتشرت في أوساط المثقفين العرب. والتجربة التي يصدر عنها «الكاتب في قصصه ورواياته، هي تجربة وجودية، فكان أدبه تبعاً لذلك أدباً وجودياً قومياً. والربط الذي اعتمده بين المفاهيم الوجودية والفكر القومي الاشتراكي قد منح نتاجه ملامح أصيلة، ساعدت على انتشاره بين عامة الناس وخاصتهم. إنه أراد من وراء أعماله القصصية إغناء العقيدة القومية عن طريق مفاهيم الوجودية، لتكون عوناً للمفكرين والأدباء القوميين في مواجهتهم الفكرية والسياسية والفنية للعقائد الأخرى، التي كانت تتصارع على أشد ما يكون الصراع في الخمسينات.» (الأطرش، ١٩٨٢م: ٢٦٢-٢٥٤) أبرز مؤلفاته هي: أشباح أبطال "قصص"، الأكلون لحومهم "مسرحية"، جيل القدر وثنائ محترف "روايتان"، والثورى والعربى الثورى "دراسة".

سارتر

جان بول سارتر (١٩٨٠-١٩٠٥) فيلسوف، وروائي، وكاتب مسرحي، وناقد أدبي، وهو من أبرز الشخصيات في الحياة الفكرية الفرنسية والعالمية في القرن العشرين ومن أعلام الفلسفة الوجودية. لقد طرح نظرية الوجودية -في البداية- بالتركيز على علاقة

الإنسان مع حرّيته في كتابه "الوجود والعدم" متأثراً بالمادية ومدح الالتزام في كتابه "نقد العقل الجدلي". وفي أعماله الأدبية المختلفة سواء في مجموعاته القصصية ورواياته كـ"الغثيان"، و"دروب الحرية"، أم في أعماله المسرحية كـ"الأيدى القذرة"، و"الذباب"، و"الأبواب المقفلة" يعبر سارتر بوضوح عن أفكاره وتفاعله مع أحداث عصره.

الوجودية؛ تعريفها، تاريخها، وأبرز مبادئها

«تعد الوجودية أحدث المذاهب الفلسفية وأهم حركة فكرية تركت أثرها على الأدب المعاصر في أوروبا وفي أرجاء العالم، وهي أصدق تعبير عن حالة القلق العام الذي تملك العالم الشعورُ الحادّ به بعد الحربين العالميتين.» (بدوى، ١٩٨٠م: ١٩) «ولم تتشكل الوجودية باعتبارها تياراً فلسفياً إلا في النصف الأول من القرن العشرين في الحضارة الغربية على يد الفيلسوف الدانمركي "كيركجور"، فهو مؤسسها الأول.» (استراتن، ١٣٧٨ش: ١٠) «ومن رواها "نيتشه" و"مارتن هيدجر" و... إلا أنها دخلت مجال الأدب على يد فيلسوفين فرنسيين: "غابرييل مارسيل" و"جان بول سارتر"، وزاد إقبال الجمهور عليها أن فلاسفتها قدموا رؤيتهم الفلسفية عبر الأدب.» (بدوى، ١٩٨٠م: ٢٥)

«ما يميز الفلسفة الوجودية أولاً هي أنها تجعل الوجود سابقاً على الماهية.» (المصدر نفسه: ٢٣) أي أن على الإنسان أن يصل إلى اكتشاف معنى حياته عن طريق الفعل الحر بعيداً عن كل إكراه خارجي مهما كان مصدره. بمعنى آخر، يبدأ الفرد في تكوين ماهيته وتحديد صفاته بكامل حرّيته، لأن هذا العمل هو الذي يميزه عن غيره من الكائنات الجامدة أو الموجودات الأخرى. ومادام الإنسان هو الذي يصنع حياته، وهو الذي يصنع قيمه فلا بد أن يكون حراً، لأن الفعل يتضمن الحرّية.

«ويحتل موضوع الحرّية أهمية خاصة في الفلسفة الوجودية وعند فلاسفة الوجود على اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم. والحرّية هذه توحى باختياره الذي يجعل على عاتقه المسؤولية تجاه الآخرين، ولكن حينما ليس بمقدوره القيام بمهمته، يدركه اليأس والحزن وهذا النوع من الحزن واحد من مضامين الأدب الوجودي.» (إبراهيم، ١٩٦٣م: ٢١٠) «ترفض الوجودية القواعد والقيم الأخلاقية الخارجية، أي تلك التي أوجدها

المجتمع، وتصير على أن الإنسان هو وحده يختار قيمه وأخلاقه داخل إطار حرته. والوجوديون يرفضون التمييز بين الذات والموضوع، ويقولون من قيمة المعرفة العقلية في ميدان الفلسفة، بل ينبغي بالأحرى التعامل مع الواقع.» (نصرى، ١٣٧٥ش: ٤٤) فالقلق والمسؤولية وموقف الإنسان في العالم، والحرية، والفعل الخالق، هذه كلها هي المعاني الكبرى التي تنطوي عليها الوجودية.

إن هذه الخصائص المشتركة بين الفلاسفة الوجوديين لا تعنى وجود تيار فلسفى واحد، إذ نجد خلافات عميقة بين ممثلى الوجودية، يكفى أن نشير إلى وجود تيارين فى هذه الفلسفة: وجودية ملحدة "هيدجر، سارتر، كامو... ووجودية مؤمنة "كيركجور".

الحرية الوجودية؛ معناها وما يترتب عليها

«لقد سادت بعض المفهومات المغلوطة عن الحرية الوجودية نتيجة سوء فهم رافق تطور هذه الفلسفة. ولم تتوقف الهجمات ضد هذه الفلسفة بسبب موقفها من الدين أولاً ثم بسبب دعوتها إلى الحرية الفردية المطلقة ثانياً.» (غالبا، ١٩٩٠م: ٦-٥) إن الإنسان قد دأب منذ فجر التاريخ على التمرد والثورة من أجل امتلاك حرته كاملة دون نقصان. «لأن الحرية هى الوجود الإنسانى ذاته، أى إنه لا إنسانية دون الحرية.» (ماكورى، ١٩٨٢م: ٢٠٠) قد تكون الحرية خطرة لكن ليس ثمة كرامة بشرية بغير حرية. فالإنسان يعتقد بحريته المطلقة، ولذلك هو سيد نفسه وإليه يعود تقرير مصيره، وتحمل مسؤولية وجوده من خلال قهر كل العوائق التى تحاصره من كل الجهات.

امتلاك الحرية يعنى عدم الخضوع لأية ضغوط خارجية، ومن هنا فإن الحرية الحقيقية هى التى تولد من الداخل نفسه ولا تعتمد على أى مصدر آخر. هناك من أعطى للحرية معنى سياسياً، أى أن يكون الفرد حراً أمام السلطة السياسية التى تحكمه. وآخرون رأوا فى الحرية بعداً أخلاقياً عندما لا يفرض على الإنسان عمل ما لا يرغب فى عمله. وفريق ثالث توقف عند حرية التعبير والحرية الدينية والحرية الاقتصادية، ولكن الحقيقة المتعارف عليها فلسفياً هى أن امتلاك هذه الحريات لا يعنى أبداً أن الإنسان قد أصبح حراً وسيد نفسه.

عندما نتحدث عن الحرية فإننا لانسى أنها لا تزدهر إلا في ظروف صحية، لأنها خارج الزمن، ولا يمكن حصرها في لحظة متميزة، إنها تحتل كل ساحة حياتنا الأرضية. إننا بحاجة لها في كل لحظة من لحظات حياتنا لأنها ملازمة لوجودنا وعندما تغيب فإن الوجود يصبح ناقصاً. ويكون هذا في حالة وجود حواجز أمامها، وعلينا أن نعمل لإزالة هذه الحواجز. وهكذا فالحرية كفاح مستمر لأننا لا يمكن أن نمتلكها مرة واحدة. «ولقد سعى الأدب كما سعت الفلسفة والديانات إلى تقديم تصور محدد عن الحرية ظناً منها أنها تجلب الأمن والطمأنينة وتحرر الإنسان من العبودية، ولكن الأحداث تثبت أن لا شيء حتى الآن استطاع تحرير الإنسان، ولهذا هناك دائماً من يريد التصدي لهذا الموضوع، ومن هؤلاء فلاسفة الوجود. فلا نكاد نجد موضوعاً أقرب إلى قلب الوجوديين من الحرية، فهو يعالج عند جميع الكتاب الوجوديين، وليس الاهتمام بالحرية، أو بالأحرى الافتتان بها محصوراً في أى طائفة خاصة منهم. ولقد أصر سارتر على قضية ملازمة الحرية للوجود الإنساني؛ فالإنسان لا يوجد أولاً ثم يصبح حراً بعد ذلك، بل إن كونه إنساناً معناه أنه حر بالفعل.» (المصدر نفسه: ١٩٧-١٩٦) إن الإنسان الذى يحمل على كتفيه عبء حريته الخاصة، ووجوده المتميز بالاعتماد على ذاته مجبر على سحب كل مسؤولياته من أية قوة علوية. عند ذلك تكون الذات الإنسانية هى مصدر الخير والشر والقيم الأخلاقية التى تسير على هداها. إنه حر، وإذا لم يرد ذلك فلأنه يرفض أن يكون حراً، هذا هو جوهر فكر سارتر. ولا يختار الإنسان أعماله فقط بالاعتماد على هذه الحرية، ولكنه يخلق القيم التى تبررها. ومن هنا فهذه الحرية ليست حرية الاختيار، بل هى حرية ومقدرة على الفعل، وأساس الوجود البشرى.

الإنسان الهدف النهائى لحريته الخاصة التى يمتلكها كاملة دون أى حد، لأنه ليس هناك فى فكره ما يمكن أن يجدها. يفرض هذا على الإنسان أن يكون مسؤولاً عن حياته كاملة. طالما أنه حر ويختار ما يريد ويلتزم به فهو مسؤول أمام نفسه عن اختياره. ولكن الخطر يكمن هنا فى صعوبة الاختيار الحر فى عالم تتغير فيه القيم بسرعة كبيرة. وهكذا يمكننا أن نتصور حالة شخص يلتزم مبدأ معيناً على نحو جاد ودائم، ولكن على ضوء المتغيرات التالية فإنه قد يقرر أن اختياره لم يكن موقفاً ليس لأنه لم يلتزم به هو،

بل لأن تغير العالم هو الذى جعله يكتشف أن اختياره لم يكن ناجحاً. ومن هنا ينشأ القلق الوجودى.

«إن القرار وحرية الاختيار والمسؤولية المترتبة على ذلك تجعل الوجود البشرى أمام نفسه وجهاً لوجه بطريقة لا بد أن تثير القلق.» (المصدر نفسه: ٢٠٢) «وعلى الرغم من اختلاف معنى هذه اللفظة عند الفلاسفة الوجوديين فإنهم يتفقون جميعاً على أن القلق يكشف بطريقة خاصة عن الوضع الإنسانى.» (المصدر نفسه: ١٨٣) «القلق ملازم للحرية، والحرية فعل إنسانى لا بل هى جوهر الإنسان. وما دامت كذلك فمن الطبيعى أن تنتاب الإنسان حالة قلق متواصل تدفعه باستمرار للارتقاء إلى مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه. فالقلق الوجودى ليس سلبياً وهداماً وإنما يدفع صاحبه إلى حسن الاختيار واتخاذ القرارات المناسبة بعد دراستها من كل جوانبها، لأنه يعرف أنه سيتحمل فى النهاية وحده مسؤولية هذا الاختيار.» (سارتر، ١٩٦٤م "أ": ٢٣-٢٢) ومن هنا ندرك سرّ اهتمام فلاسفة الوجود ولاسيما سارتر بمشكلة الحرية.

إن حرية سارتر المطلقة قد فتننت بعض الكتاب السوريين، فبدأوا يعالجون فى أدهم مسائل مثل: الحرية، والقرار، والاختيار، والمسؤولية، والالتزام. سنحاول بعد قليل تقديم نماذج من روايتين: "جيل القدر" و"ثائر محترف" لصفدى، كى نبين قصده من الحرية من جهة، وندرس ونبحث آراء سارتر حول الحرية، مع الإتيان بشواهد من بعض أعماله ك"الغثيان"، و"الأيدى القذرة"، و"الذباب"، و"سن الرشد" من جهة أخرى، ونبرز بذلك صدق الأفكار الوجودية لسارتر فى أعمال صفدى، ونؤكد تأثيره فى هذا الكاتب السورى. وانطلاقاً من ذلك نرى من الضرورى أن نعطي نبذة موجزة عن الأعمال المطروحة على بساط البحث قبل كل شىء:

جيل القدر

«إن "جيل القدر" رواية فلسفية زاخرة بالآراء والمناقشات والإشارات الفكرية، والجو العام للرواية يحمل معظم الملامح العامة للوجودية. ومن ناحية التأثيرات الوجودية تحاول الرواية التوصل إلى فهم وجودى للإنسان من خلال ذاته وعن طريق

المعاناة المستمرة والمجدل المتواصل. إن القيم الأساسية ووسائل التفكير على الرواية ذات طابع وجودي سافر. ثم إن العلاقة العاطفية التي تستمر خلال الرواية علاقة مفهومة من خلال المصطلحات الوجودية.» (الخطيب، ١٩٩١م: ١٠٧)

والرواية تضم نماذج مختلفة من أبناء الجيل العربي السوري في خمسينات القرن العشرين وفي وسط هذه المجموعة الزاخرة تتحرك الشخصية المركزية وتحرك الجميع. إنه "نبيل" طالب الفلسفة الفقير، الفنان، المناضل الذي يمثل قلب حركة البعث، والتقاء النضال القومي بالوعي الوجودي، ومنتهى التناقض والإشكالية، والذي أراد له الكاتب أن يكون أسطورةً ولغزاً وواقعاً في وقت واحد، وأن يكون نفسه وجيله في وقت واحد أيضاً، على أن لا يكون تركيباً لهذه التناقضات، بل يكون خلقاً جديداً.

ثائر محترف

«تعتبر رواية "ثائر محترف" امتداداً للمحاولة الضخمة التي بدأها صفدي في "جيل القدر" لشحن الموقف القومي بمضمون وجودي، ولكن هذا الامتداد يفتقر إلى توهج المحاولة الأولى وحماسها وجسارة ادعاءاتها، ويحمل آثار صدمة فكرية ونفسية أصابت المحاولة في صميمها.» (الخطيب، ١٩٧٣م: ١٢٥) وتدور الرواية حول موضوع رئيسي هو الثورة الشعبية اللبنانية، والظروف التي أحاطت بها، وبعض أحداثها الرئيسية، والنهاية المحزنة التي انتهت إليها، مع محاولة الكشف عن نفسيات الثوار في البلدان العربية المختلفة والعناصر التي تدخل في تركيب عقليتهم الثورية والجوانب السلبية التي أدت إلى إخفاق الثورة. وتعرض هذه المادة السياسية الفلسفية النفسية الاجتماعية من خلال منظار واحد في الرواية كلها، وهو منظار الثائر المحترف "كريم" الذي قضى خمسة عشر عاماً في إسهام مستمر في الثورات العربية، وتردد كثيراً قبل أن ينخرط في صف الثورة اللبنانية لأنه كان في مرحلة إعادة نظر.

نتائج سارتر

الغثيان

«إن "الغثيان" هو الرواية الأولى لسارتر، والتي تشمل أفكاره النظرية، إضافة

إلى ميوله السياسية. ويتناول هذا الكتاب -وهو أقوى رواياته الفلسفية- الحرية، والشخصية البرجوازية، وظاهراتية الإدراك، وحقيقة التفكير وطريقته، والمذكرات، والفنّ. ويتمّ طرح هذه المواضيع برمتها عقب الكشف والشهود الناتجين من الميول الميتافيزيقية لأنطون روكنتان "بطل الرواية. وهذه المكاشفة -بتعبير فلسفي- هي الكشف عن نقطة ألا وهي أنّ العالم له حقيقة محتملة، ونحن نرتبط به من خلال العقل والبرهنة، وليس الحدس والمكاشفة." (مردوك، ١٣٥٣ش: ١٤) يتوصّل "روكنتان" -هذا المؤرّخ المكتتب والمنعزل الذي تتمحور الرواية حول شخصيته- إلى قناعة بأنّ الأشياء الجامدة والمواقف المختلفة تخلّ بتعريفه للذات وحرّيته العقلية والروحية، ويؤدّي به هذا العجز إلى الغثيان. هذه الرواية من الأعمال البارزة للمذهب الوجودي.

الأيدي القدرة

يعرض سارتر في مسرحيته "الأيدي القدرة"، الماركسية المثالية لديه؛ وهي التي لن يكون لها فاعلية وكمال -في رأيه- دون التفكير الوجودي. إنّه يُدخل شخصيتين متباينتين في هذه القصة، كى يصل إلى اعتدال؛ إلى فلسفة سياسية تربط بين الإنسانية والشعور بالمسؤولية لدى "هوغو"، وبين تجنّب الأخطار وقدرة "هودرر" على قول لا.

الذباب

في هذه المسرحية يتطرّق سارتر إلى قضيّة هي النقطة الأساسية بالنسبة إليه في جميع أعماله وكذلك في حياته؛ ونعني بهذه القضية الحرية؛ غير أنّ هذه الحرية لا بدّ أن توجد في المجالين الميتافيزيقي والاجتماعي. تحكى "الذباب" قصة الاضطرابات والتوترات التي تصيب النفس الإنسانية. والقصة هي عن الغرابة الذاتية، والكذب، والحيانة، والانفصال، والجريمة؛ وتتحدّث عقب ذلك كله عن الندامة والمخاوف المحيطة بها.

سن الرشد

يمثّل "سن الرشد" ردّ فعل عنيفاً وصارخاً ضدّ الجبريين. فلم يكن سارتر يقبل الجبر، وتحوّل بتأليف عمله هذا إلى رائد فذّ للوجودية.

مفهوم الحرية عند مطاع صفدى

تعرف الكتاب السوريون إلى الوجودية من خلال الأدب الوجودي، وكان تأثيرها فيهم كبيراً إلى درجة أن الدكتور حسام الخطيب يقول: «إن معظم كتاب الخمسينات استندوا بشكل أو بآخر إلى الأفكار الوجودية.» (الخطيب، ١٩٧٣م: ١٠٨) وكان مطاع صفدى أقوى الأصوات المتبنية لهذا الاتجاه، سواء في كتاباته النظرية أم في قصصه ورواياته. وكان تعلقه خاصة بمفهوم الحرية الذي بنى عليه جل أعماله. وكان لموقف سارتر الثوري إزاء الحرية الفردية، ودعوته الإنسان إلى تحمل مسؤولية مصيره معتمداً على ذاته أثر مباشر في تبني صفدى لهذه الحرية في كتاباته.

«إن موضوع الحرية الذي احتل مكانة مهمة في إبداعه الأدبي يعطى لهذا الإبداع وحدة وتماسكاً في نسيج الأحداث التي تعيشها شخصياته الروائية. وكان يريد من الفرد العربي أن يقف بصلافة لتحمل مسؤولياته والتغلب على كل من يقف في طريقه، لأنه كان يؤمن أن الإنسان هو المسؤول الأول والأخير عن قدره. وهذه المسؤولية مضاعفة بالنسبة إلى الفرد العربي، لأنه يواجه أحداثاً جساماً تستوجب إرادة متميزة. وأول ما يجب عمله هو التطلع إلى الذات الداخلية لأنها نقطة الانطلاق في أية عملية تغيير حقيقية. فعلى الإنسان العربي أن يعي ذاته أولاً لكي يسهم بفاعلية في تحرره و تحرر أمته.» (صفدى، ١٩٦١م (أ): ٩٨)

إن حرية صفدى تخضع لظروف محلية في حين أن حرية سارتر تنطلق من الحاجة الفردية التي لم يهتم بها صفدى كثيراً لأنه كان يريد الحرية لجميع العرب أينما كانوا. ولم تكن الحرية عنده حرية فرد، بل حرية جماعة ولكن الحريتين لا تتناقضان بل تتكاملان. والحرية الفردية لا تعنى تصرف كل فرد على هواه، بل التصرف حسب الحاجة التي تفرضها المشاعر القومية. ولا يهتم الكاتب بمصالح الفرد التي يمكن أن تعيق عملية التحرر المنشودة ولكنه لا يفصل الهوية الفردية عن الهوية القومية.

الحرية والمجتمع

إن الحرية الفردية جزء من الحرية الجماعية، والجماعة لا يمكن أن تتحرر إذا

كانت حريات الأفراد ناقصة. صحيح أن هناك بعض العثرات الجامدة التي لا يمكن تحريكها، ولكن الإنسان موجود دوماً لإثبات مقدرته على إزالة كل الحواجز التي تقف في طريقه، وفي كل الحالات لا غنى للإنسان عن الحرية التي تفرض نفسها كإحدى الحقائق الكبرى التي تقدم الحلول لكل مشكلات المجتمع العربي. يقول مطاع صفدى في روايته "ثائر محترف": «إننا نحن العرب، كنا في حاجة دائمة إلى ثورات الأفراد من خلال ثورة الجماعة... الثورة ليست مدرسة لتخرج لنا بطلاً، إنها تجربة البطل أمام ذاته أولاً.» (المصدر نفسه "ب": ٢٨٠) إذن يعنى صفدى تمام الوعي أن الحرية الفردية جزء من الحرية الجماعية، وبدونها لا معنى لأى حرية أخرى.

مما لا شك فيه أن صفدى يبحث عن أسباب تشويه الوجود الإنساني في الظروف الاجتماعية والاقتصادية المغلوطة التي تتحكم في المجتمع، ويعرف أنه لا يمكن الحصول على الحرية في مثل هذه الظروف القاسية، ولذلك يدعو إلى الخروج من هذا المأزق عن طريق التمرد والثورة. فحريته أولاً هي رفض لكل ما يحيط بالإنسان من قهر وجور وظلم، ثم تحدي في سبيل الاستمرار في هذه الحياة بانتظار فرصة أفضل لتتيح لأبطاله الخروج من مأزقهم. إن تحرر الفرد من كل العوائق التي تسد طريقه وحصوله على الحرية المطلقة قاعدة الانطلاق الأولى لتحرير الأمة العربية: «لن يتضح هدف المناضل العربي إلا عندما ينطلق من مشكلة الفرد بالنسبة لذاته إلى مشكلة الفرد بالنسبة لأمته.» (صفدى، ١٩٦٠م: ٣٧٧) فعلى الإنسان أن يؤسس قيمه الخاصة أولاً، ويخلقها من الداخل. ولهذا فإن حنان إحدى شخصيات رواية "ثائر محترف" تقول لفؤاد: «قل لى كيف يمكنك البطولية إن لم تعمل على القضاء على القيم الأخرى التي تناقضها.» (صفدى، ١٩٦١م "ب": ٢٤٦) يبدو هذا الهم الكبير تماماً من خلال حاجة الشخصيات إلى الاستقلال عن المجتمع وقيمه المتوارثة. وتتميز شخصيات صفدى بأصالة حقيقية فيما يتعلق بالأفكار الوجودية، وبرفضهم المطلق لكل فكرة تقليدية متوارثة تعيق خلق تصوراتهم الخاصة لحياتهم. ويقفون خاصة في وجه كل فكرة مجردة تأتي عن طريق الآخر دون إخضاعها إلى المناقشة العقلية التي تثبت صحتها أو خطأها.

الحرية والمسألة الميتافيزيقية

عندما يرى الإنسان نفسه الخالق الوحيد لقيمه، فإنه لا يمكن أن يريد شيئاً آخر غير

الحرية منبع كل القيم. ضمن هذا المنظور يرفض صفدى وجود قوة ميتافيزيقية تسيّر الإنسان، ويدعو إلى التحرر من سلطتها: «أريد أن أغتسل من أوهام الآلهة وأن أولد مجدداً.» (المصدر نفسه: ٣١١)

على الإنسان أن يتسلم قدره، ويتحمل مسؤوليته في مواجهة العالم الذي لا يخضع لأى قوة خارجية. وعليه أن يخلق طريقه الخاص في ظل غياب كل سلطة ميتافيزيقية، لأن حريته المطلقة تتعارض مع وجود مثل هذه السلطة. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، الحرية الكاملة في المجتمعات الإسلامية تعنى الالتزام بما تفرضه الشريعة الإسلامية والخضوع لقيم الخير والابتعاد عن الشر وفق التعاليم الدينية. فلا يمكن مصالحة هذه الضرورة الدينية لحرية صفدى الذي يعتبر أن الإنسان حرية، وليس جوهرًا سابقاً لوجوده.

إن الكاتب يتطلع إلى الوجودية الفرنسية ويأمل أن يجد فيها ما يعينه على فهم الواقع العربى وإيجاد الحلول المناسبة لمشكلاته. أى إننا لا نستطيع فهم موقف صفدى إلا فى الإطار العام للوجودية.

الحرية الوجودية بين صفدى وسارتر

الحرية هى أساس القيم

إن المتتبع لأدب صفدى يلاحظ أنه يعبر فى كثير من الأحيان عن مشاعر فئة قليلة من المثقفين الذين يرفضون واقعهم ويشورون عليه. إنهم يريدون إقامة حياة جديدة مستوحاة من الوجودية الأوربية، وبذلك يتخلصون من كل ما يعدونه قيداً أمام تحرر الفرد العربى. ويمكن أن نعد الكاتب، الناطق الرسمى باسم هذه الفئة المثقفة. إنه يكرس قلمه لرسم الطريق أمام الأجيال التى تريد بناء أسطورة الحرية. وبذلك يقترب من الفيلسوف الوجودى الفرنسى سارتر الذى كرس حياته وقلمه وفلسفته لهدم الحواجز التى تحرم الإنسان حقوقه الطبيعية، والذى آمن طوال حياته بالإنسان وبمقدرته على تأسيس منظومة من القيم تساعد على العيش دون الرجوع إلى أى مرجع آخر غير ذاته. لقد كتب سارتر فى كتابه بعنوان الوجود والعدم: «لا يمكن أن تظهر القيم إلا من خلال حرية فاعلة.. وينتج عن ذلك أن حريتى هى الأساس الوحيد للقيم، ولا يسوغ

شيء أبداً اختياري لهذه القيمة أو تلك.» (سارتر، بي تا: ٤١)

إن فلسفة سارتر الوجودية تضع تقنها في الإنسان وتطالبه بأن يكون المصدر الأول والأخير لحرية. إنها تحاول أن تحرر الإنسان من كل العوائق المادية والروحية. لأن الحرية الحقيقية لا تكتمل إلا من خلال الالتزام بعمل حر، والذي سنرى تأكيده في تصرفات بعض الشخصيات التي ترفض الخضوع للقيم المتوارثة. في هذا السياق، تحمل جمل سارتر في "الذباب" دلالة خاصة: «لا أريد أن أتبع إلا طريقي، وعلى كل إنسان أن يخلق طريقه.» (سارتر، ١٣٥٣ش: ١٢٧) وهذا له معنى كبير في الفلسفة الوجودية، لأنه يفرض على "أورست" بطل سارتر أن يتحمل مسؤولية حرية، وبذلك يخرج عن الطاعة الدينية، لا بل يدعو إلى الثورة ضد أية سلطة دينية والمتمثلة هنا في الإله جوبيتر: «غريب عن ذاتي، قال أورست، أعلم. خارج الطبيعة، ضد الطبيعة، دون عذر، دون أي مرجع آخر إلا ذاتي. ولكنني لن أعود إلى تحت شريعتك: فأنا مدان أن لا أملك شريعة أخرى غير شريعتي، لن أعود إلى طبيعتك: ألف طريق عبت فيها والتي تعود إليك، ولكنني لا أستطيع إلا اتباع طريقي الخاص.» (المصدر نفسه: ١٢٨)

إن رسالة أورست توضح أنه على الإنسان أن يتخلى عن كل مطلق خارج عن إرادته إذا أراد أن يعيش حراً وأن يمارس إنسانيته كاملة دون انتقاص. ولم يكن باستطاعته هو أن يفعل ذلك لولا دخوله في صراع مفتوح مع "جوبيتر" لرفضه الاعتراف بسلطته على الإنسان. وبذلك يكون الإنسان بالنسبة لأورست هو صانع جوهره وحياته.

يبدو صفدي من هذا الجانب قريباً من فكرة سارتر في "الذباب" من حيث أن الإنسان هو الصانع المطلق لكل قيمه، وعليه أن يؤسس قيمه انطلاقاً من ذاته واعتماداً على خياره الخاص، وأن يتصرف بالاعتماد على فرديته وليس على أي مرجع آخر: «ينبغي أن يعيش الإنسان وفق الإرادة نفسها لا وفق بعض القواعد.» (صفدي، ١٩٦٠م: ٤٨٢) ولكن قبل ذلك لابد له من الثورة على كل سلطة دينية أو عائلية أو ثقافية يمكن أن تعيق تحرره لكي يحصل على فرديته. ولذلك يعلن سمير في رواية "ثائر محترف" أثناء سهرة راقصة: «يجب أن نقتل الوعي.. هكذا يجب أن نتحرر من النظام، من المراقبة من عيني وعينك، من العمل.. يجب أن ندوس وضوح العقل ورزانة العصور.. يجب أن

نبدأ هكذا من الفصل المتورم، والدم المجنون، والشبق السائل على الشفاء.» (صفدى، ١٩٦١م "ب": ٢٨) إن تحرر الفرد من هذه العوامل الاجتماعية يجعله خالقاً لنفسه وقيمه. فتحاول هيفاء إحدى شخصيات الكاتب في رواية "جيل القدر" أن تنحط طبقته لتكون نفسها، وهي تقول لنبييل: «وإن تجربتي معك هذه لأصدق دليل على أنني أستطيع أن أكون أنا ولا أكون طبقتي، أن تكون لى ميزاتي الخاصة، فضائلى وعبوبى، وآرائى، ولهجتى فى حياتى ووجودى وتفكيرى، وألا أستقى كل ذلك من شىء أعم منى، خارجى عنى.» (صفدى، ١٩٦٠م: ١٦٥)

إن الشخصيات فى أديهما مجبرة على الاختيار بعد أن ذهبوا إلى أقصى مدى من الشك المنهجى، وبعد أن رفضوا الاعتراف بالمصادر الأولى والقيم الجاهزة. لقد جعلوا من الحرية المبدأ الأساسى للحقيقة الإنسانية، لأنهم يعتقدون بالعفوية المطلقة للوجود، ضد كل شكل من أشكال الحتمية. نتيجة لذلك فإنهم يتصرفون بحرية دون أى إكراه خارجى. وهذه هى شخصيات صفدى فى "ثائر محترف" ثور ضد القيم المتوارثة. تقول مارى: «إنى أشك أن يكون الطريق إلى الله هو الحب. ليس هناك إلا طريق الثورة وحدها. أنا لا أعرف ما هى هذه الثورة؟ ولكنها ستكون على كل حال تحدياً كاملاً لأى مطلق آخر.» (صفدى، ١٩٦١م "ب": ٥١)

تريد شخصيات صفدى أن تعطى لنفسها أحقية تبنى مشاريعها الخاصة، وأن تخلق ذاتها بذاتها: «إن الثورة معناها أن الفرد بدأ يمتلك ذاته. وعندما تولد الحرية فى روحه لا تكون حياته بعد ذلك إلا قلقاً متزايداً من أجل الاحتفاظ بهذه الحرية.» (صفدى، ١٩٦٠م: ٤٨٠) ضمن هذا الفهم يكون صفدى تلميذاً لسارتر.

فالحرية منبع القلق، لأن كل شىء يعتمد عليها. وإذا كانت هذه الحرية هى أصل الأشياء ومصدر القيم فإنها تكون بذلك دون سند حقيقى لأنها مقطوعة عن كل غاية وليست مرتبطة بأى شكل من أشكال السمو. ولهذا فإن كريم بطل "ثائر محترف" يعانى من عزلة شديدة فى مواجهة بعض القرارات التى يريد اتخاذها والتى تتعلق بحياته الخاصة. وفى الساعات الحرجة من حياته يتردد بين الخيارات لأنه يعرف جيداً أن الفعل الحر يلزمه بتحمل المسؤولية عن ماضيه وحاضره ومستقبله ولا يستطيع إعادة

عقارب الساعة إلى الورا. مثلاً يتردد كثيراً قبل أن ينخرط في صف الثورة اللبنانية وبعد أن قضى خمسة عشر عاماً في إسهام مستمر في الثورات العربية: «أنا لم أملك أى استعداد نفسى سابق... إننى قد انتهيت من الثورات والمعارك والمظاهرات، تلك الحياة لم أعد أصلح لها. لقد أصبحت فى حاجة إلى التفكير.» (صفدى، ١٩٦١م "ب": ٣٠٩)

«إذا انتقلنا إلى مسرحية سارتر "الأيدى القذرة" لرأينا هذا التردد بالنسبة إلى هوغو فى قتل هودرر. فرغم أن الحزب كلفه بذلك ولكنه لم يستطع تنفيذ عملية القتل إلا بعد أن دخل إلى مكتب هودرر ووجده يعانق زوجته جسيكا فلم يتمالك أعصابه ووجه ثلاث رصاصات إلى صدر هودرر كانت كافية لقتله.» (سارتر، ١٣٨٢ش: ١٧٠)

إن تردد "صفدى وسارتر" هو تردد ناجم عن الحرية، فمن يمتلك حريته كاملة، فعليه أن يقلق فى مواجهة الخيارات الصعبة، وبالتالي يتردد كثيراً فى الانتقال من مرحلة التأمل إلى مرحلة الفعل.

أبطال صفدى يسيرون إذاً فى طريق معبد مسبقاً من قبل سارتر خاصة فى مسألة الحرية الفردية، والسيطرة عليها وامتلاكها كاملة دون أى انتقاص. بعبارة أخرى، إنهم يرفضون كل حتمية مسبقة مهما كان مصدرها، كما أنهم يؤمنون أن الإنسان لا معنى له إلا إذا امتلك حريته المطلقة بعيداً عن كل مطلق آخر.

الحرية والآخر

لقد كان لخسارة العرب حرب (١٩٤٨م) وإقامة دولة إسرائيل فى قلب الوطن العربى فعل الزلزال الذى كشف عن الزيف الذى يعصف بالحياة العربية. فرسم طريقاً جديدة لا بد للأمة من السير عليها حتى تتخلص من واقعها المشين. كان ذلك هو طريق الحرية الذى رسم خيوطه العريضة الفيلسوف الوجودى سارتر، ليس فقط فى مجال تحرر الإنسان من القيم الميتافيزيقية، ولكن أيضاً فى موضوع تحرر الإنسان من محيطه الاجتماعى وقيمه البالية التى تعيق تقدمه.

«وكان همّ صفدى الأساسى هو الوصول بشخصياته إلى درجة متطورة من الشعور بالحرية والمحافظة على هذه الحرية، لأنها أساس كل فعل مبدع.» (إبراهيم، ١٩٦٣م: ٢١٤)

وهذا يقربهم من وجود حقيقى أصيل، لأنهم لا يعتمدون على أحد فى كل ما

يفعلون ويقررون. ويظهر ذلك جلياً في بحث هذه الشخصيات عن استقلالها العاطفي بعيداً عن كل ارتباط عائلي أو عاطفي. هكذا كان كريم بطل "ناتر محترف" الذي يبحث أولاً وأخيراً عن كيفية التحرر من قيود المجتمع وقوانينه. هذا الخيار دفعه بعيداً عن العلاقات العائلية، لأنه يشعر أنها مس خطيرة في مسألة الحرية الشخصية.

من أجل هذه الحرية أيضاً تشور إيفيش في "سن الرشد" لسارتر ضد عالم الكبار و ضد التقاليد التي تخضعها لهذا العالم. ولم تكن مؤهلة للاستغناء عن عالم الكبار اقتصادياً وعاطفياً، ولكنها كانت تشعر أن اعتمادها الاقتصادي على والديها خطر يهدد حريتها واستقلال قرارها: «لم أعد أنا ذاتي اليوم، إنني أعتمد على الآخرين، وهذا يوم من أجل لا شيء، يوم مخنوق يسرقونه مني.» (سارتر، ١٣٥٢ش: ٦٥) إن البطلة تبحث عن أبعاد شخصيتها التي تميزها عن الآخرين، إنها لا تؤمن باتباع الكبار في حياتهم، وترفض القيم التقليدية المتوارثة لأن لها تصور الخاص النابع من داخلها. ولقد شارك بوريس أخته في أفكارها التي ترفض الاعتماد على الآخرين، وكان يتميز بالحدز إزاء كل ما يتلقاه من الآخرين؛ لأنه كان يريد الوصول إلى حريته عن طريق التأمل العقلي الذاتي. إن بطل صفدي - كأبطال سارتر في "سن الرشد" - عندما يرى العلاقات العائلية تمنع حريته وتضيع فرديته فلا يتقيد بها؛ لأنّ العلاقة مع الآخرين كلما كانت تنطوي على ضياع الجانب الشخصي والإنساني، دل ذلك على أنها وجود زائف حتى وإن كان هذا الوجود في الإطار العائلي، بينما الوجود الأصيل مع الآخرين هو ذلك اللون من العلاقة بالآخر الذي يعمل على تأكيد الوجود البشري بكل ما في هذه الكلمة من معنى، أي إنه يترك الأفراد أحراراً لكي يبرزوا ما في شخصياتهم من تفرد.

«إن كريم لا يتقيد بالعلاقات العائلية، وفي نفس الوقت يرفض علاقات الحب وتبادل المشاعر التي تقود إلى الزواج، لأنّ أي علاقة عاطفية ستوقعه تحت تأثير الآخر. مصدر هذا الرفض هو خوف حقيقي من أي خطر قد يتسرب من الآخر حسب النظرية الوجودية.» (ماكوري، ١٩٨٢م: ١٢٧) «لأن الحرية هنا تقدم نفسها للآخر بدلاً من أن تظل المصدر الأول والأخير لكل القيم. ولأن "الجحيم هو الآخر".» (صفدي، ١٩٦١م "ب": ٧٨) فيثور كريم بعد أن تحمل طويلاً صديقه التي بدأت تشكل خطراً

حقيقياً على حريته فيقول: «وتتضاءل ماديلينا إلى جانبي، حتى أفقد في لحظات الشعور بوجودها، فأحس رأسها فجأة يقع على كتفي. كنت أود أن أتحرك منها بسرعة. لا شيء يجعلني مريضاً مثل شعوري أن أحداً من الآخرين أصبح يتكئ على، يحتاجني، لا أحب هذه النفخة، هذا الشعور الوهمي بالقدرة على نفع الآخرين. إنني أجهل كيف أكون نافعاً لذاتي، فكيف للرؤوس الأخرى التي ستلقى على كتفي.» (المصدر نفسه: ٨١)

«مما لا شك فيه أن الوجود البشري مستحيل بمعزل عن العالم، فالوجود البشري هو في الحقيقة "وجود - في - العالم"، ويعيش الموجود البشري في تفاعل مستمر مع غيره من الموجودات البشرية. هذا وإن العلاقة الأصيلية مع شخص آخر لا يمكن أن تكون أحادية الجانب أو فيها نزوع إلى السيطرة والامتلاك. فهذه العلاقة لا يمكن أن تصل إلى الاتحاد الكامل لأنه على كل فرد أن يحفظ للآخر حريته وتفرد له كي يكون ذاته.» (كامل، ١٩٦٧م: ٨٢)

يقول كيركغارد: «ينبغي على كل فرد أن يكون ضئيلاً في تعامله وعلاقته بالآخرين.» (ماكوري، ١٩٨٢م: ١٢٦) إن هذا المبدأ هو الذي يوجه أبطال صفدي في علاقاتهم مع الآخرين ولا سيما مع النساء؛ لأنهم يظنون أن الحب يفترض التصرف بحرية الآخر؛ فمادلين ترغب في أن تتطور علاقتها بكريم إلى الاتحاد، في حين أن كريم يفلسف الأمور على نحو آخر لأنه يظن أن حبيبته تريد امتلاكه: «إنها إذن تعدّ لمستقبل طويل تقضيه معي. هكذا تمطّ العواطف نفسها. إنها في لحظة واحدة تريد أن تحوز على الزمان كله. إنها تريد أن تمتلك المستقبل، مستقبلي أيضاً. أ تكون هذه المرأة قد بدأت تحب حقاً.» (صفدي، ١٩٦١م "ب": ١٠٢) «ونبيل بطل "جيل القدر" - كذلك على هذا الأساس - لا يقبل حب هيفاء التي أعطته كل شيء وتنازلت عن مفاهيمها وكبرياتها وتبنت قضاياها، حتى أصبحت شريكته في القتل.» (صفدي، ١٩٦٠م: ٢٦٠) هذه الأمثلة تشير إلى «استحالة الحب في المفهوم الوجودي.» (مهرين، ١٣٤٣ش: ٣٩)

كذلك سارتر يرى الحب تعبيراً جسدياً بسيطاً، قد يكون ضرورياً ولكنه دون عمق حقيقي. إن العلاقة التي نجدها بين شخصيات سارتر الروائية أو المسرحية تؤكد وجهة نظره. إنه يطرح مشكلة الحب باعتبارها تمثل خطراً حقيقياً على الحرية. ولهذا فإن

شخصياته تعاني من كل علاقة عاطفية تُفرض عليها. فيصبح من المستحيل الوصول إلى السلام المنشود عبر الحب كما وقع لروكتان في "الغثيان".

إن الاتحاد الذي بحث عنه روكتان طويلاً لم يكن إلا وهماً انكشف مع أول ملامسة للواقع: «أنا حر: إنه لا يبقى لى أى سبب لكى أعيش، فجميع الأسباب التى حاولتها قد تراخت، ولا أستطيع بعد أن أتصور أسباباً أخرى. كم عوّلت على آنى، فى أخرج لحظات إرهابى، وغثياناى، لكى تنقذنى.. ولم تُعدْ آنى إلا لتنتزع منى كل أمل. إننى وحيد فى هذا الشارع الأبيض الذى تحفّ به الحدائق. وحيد وحرّ.» (سارتر، ١٩٦٤م "ب": ٢١٩) لقد وقع روكتان فى فخ الحب لأن آنى لم تكن فى مستوى الأمل. عندما وجب على آنى الاختيار بين قلبها وحريتها اختارت الحرية دون النظر إلى الصدمة التى ستسببها لرفيقها. ومن هنا وجد روكتان أن حرّيته فى عزلته؛ لأن الحب الذى يعيش فى القلق مصيره الفشل.

إنّ الآخر عند صفدى وسارتر يمثل عقبة أمام تحقيق ذات المرء ويعدّ عائقاً أمام حرية الإنسان ولكن هذا ليس بمعنى أنّ الكاتبين يرفضان العلاقة مع الآخرين ويدعون إلى الانفصال عنهم. فالوجود الفردى الخالص غير ممكن فى نظرتهما ويصعب تسميته بالوجود البشرى؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الوجود مع الآخرين يكون أصيلاً بمقدار ما يترك الأفراد أحراراً لكى يبرزوا ما فى شخصياتهم من تفرد. فالجماعة الحقّة هى التى تسمح بتنوع حقيقى. لا سبيل إلى بناء جماعة أصيلة إلا بكسر طوق هذا الوجود المشوه مع الآخرين. وينبغى تحطيم علاقة الاستلاب التى تحكم العلاقات الإنسانية ويظهر الإحساس بالاستقلال والشعور بالكرامة قبل أن يصبح من الممكن قيام أى علاقة إيجابية.

الحرية والالتزام

لقد أكد سارتر وصفدى على أن الإنسان يجب أن يختار أفعاله ويخلق القيم التى تبررها. وإذا كان صفدى قد حض على اختيار الحرية فإنه كان ينبه دائماً إلى أن المغامرة ليست سهلة بسبب طبيعة المشكلات التى سيواجهها الإنسان. ومن هذه

المشكلات طبيعة القوى السياسية المهيمنة على مقدرات الإنسان العربي في ستينات القرن العشرين. وهكذا وجد أبطاله أنفسهم في قلب المعركة التي تخوضها الأمة العربية على امتداد ساحة الوطن العربي. فالتزموا مشكلاتها وناضلوا في صفوف الثوار وكان الهدف من هذه المعارك تحرير الإنسان العربي من جهة، ومن جهة أخرى الارتقاء به إلى مستوى أعلى من الشعور والوجود. كان هذا جوهر معركة صفدى التي كرس من أجلها قلمه وفكره.

«وكان شعار صفدى أن الفعل وحده هو القادر على تحرير الفرد والأمة العربية من الاستعباد الخارجى والاستعباد الداخلى.» (الخطيب، ١٩٨٣م: ٨٥) والفعل يستوجب الثورة الجماعية لكى يكون مؤثراً فى عالم ساد فيه الاستلاب. وهذا ما دفع صفدى إلى الالتزام السياسى والانضمام إلى صفوف حزب البعث العربى الاشتراكى الذى يمثل رأس الحرية فى النضال السياسى العربى.

لقد كان صفدى يثق بنفسه عندما أكد على ضرورة احترام بعض القيم الإنسانية: حق الحياة، الحرية، المساواة فى السياسة. وكان خوفه كبيراً من أن تُنتقص هذه الحريات فى غمرة تراحم الأحداث السياسية، ولذلك حاول دعم وجهة نظره السياسية بأفكار فلسفية توسع دائرة الرؤيا أمامه ويمكن لشخصياته الروائية أن تتبناها كما حدث مع كريم فى "ثائر محترف" ونبيل فى "جيل القدر". ولهذا جاءت أفكارهما تعبيراً عن البعدين السياسى والفلسفى فى شخصيتهما موظفين فى خدمة هدف واحد هو تحرر الفرد العربى والأمة العربية. وثورة بطلى روايته تجسيد حقيقى لهذا التوجه فى فكر الكاتب، كما أن الثورة بمعناها الواسع تعد احدى المحاور الرئيسية لفلسفته. وحقته فى ذلك أن الأمة العربية أحوج ما تكون إلى هذه الثورة التى ستخلصها من استلابها وتخلفها. والثورة عمل جماعى يقضى على العزلة والقلق الفردى، لأن الهم الجماعى يتغلب على الهموم الفردية. ولكن هذا لا ينفى أن يكون الهم الفردى فى مركز اهتمامات أبطال صفدى. ويمكن القول إن معركة أبطاله تتمحور حول هدفين اثنين: تحرير الفرد، وتحرير الأمة: «العربى مدعو إلى إعادة النظر فى وجوده الفردى، وفى وجود الأمة عامة.» (صفدى، ١٩٦٠م: ٤٨٠)

«إن القلق الناتج عن الجمع بين الحرية الفردية والالتزام الجماعي يبدو واضحاً في موقف نبيل بطل رواية "جيل القدر". على الرغم من أن بطل صفدى قد وصل إلى نتيجة مفادها أن حرّيته تحتاج إلى التزام يؤكد الذات في مواجهة الواقع وتفسح الطريق أمام الآخرين للوصول إلى حرياتهم.» (المصدر نفسه: ١٧٠) ولم يكن الواقع السياسى فى سورية يسمح بتطبيق هذه المبادئ. فلقد تميزت الحقبة التي تتحدث عنها الرواية بفوضى سياسية وانقلابات عسكرية متتالية.

إنّ نبيل يتخلّى عن كل اهتماماته الشخصية ليناضل دكتاتورية الشيشكلى ويخلّص الشعب من ظلمه. فنجدّه يشترك فى مؤامرة قتل الديكتاتور بدافع فردى لا بأمر حزبي. وهو يؤكد فردية دوافعه من وراء القتل أكثر من مرة؛ فمثلاً يقول: «أريد أن أقتل لأننى أريد أن أقتل.» (المصدر نفسه: ٢٥٧) أو يقول: «كلنا لدينا أسبابنا الخاصة لأن نشترك فى القتل.» (المصدر نفسه: ٢٤٥) اختلاف دوافع القتل يدلّ على حفظ الحرية الفردية لشخصيات الرواية، والنقاء هذه الدوافع فى المصير العام للأمة يشهد بالالتزام. وهكذا يجمع صفدى بين الحرية الفردية والالتزام الجماعى.

ويستغل الكاتب هذا الالتزام العقائدى فى روايته الأخرى "ثائر محترف". ويقوم البطل كريم فى شرح الأسباب التى جعلته يلتزم قومياً والأهداف المراد تحقيقها من هذا الالتزام، فيقول: «لم يكن فى حياتنا ما يبعث على الأمل حتى بموت صادق. كنا دائماً نشعر أننا مخدوعون، وأتينا لا نكاد ننجو من شرك حتى نقع فى شرك آخر. ومع ذلك كنا نحلم بالآمال الكبرى. سوف نطرد الاستعمار من العالم العربى، سوف نقضى على الفئات الحاكمة، سنحقق الوحدة الشاملة، ونزيل الشقاء عن كاهل شعبنا، وننشئ حضارة عربية جديدة، كانت تلك هى مبررات وجودنا.» (صفدى، ١٩٦١م "ب": ٣١٧) تظهر هذه الأحلام أن كريماً بطل قومى لا يبحث عن حرّيته الفردية فقط، ولا يسعى إلى تنظيم تضامن إنسانى، بل يريد تحقيق برنامج سياسى محدد.

«يرى البعض أنّ التوفيق بين الأفكار الوجودية وبين الأفكار القومية، وإجراء مصالحة بين الفكر القومى الملتزم والمهادف والمتفائل والمضطرم فى مطلع الخمسينات وبين الفلسفة الوجودية لم يكن من السهل.» (الخطيب، ١٩٨١م: ج ٩٤/١) مع ذلك فقد

بذل بعض الكتاب القوميين من أمثال صفدى جهوداً مضنية لاستخدام عناصر الفكر الوجودى فى معركتهم العقائدية. وهكذا جرى إضفاء القلق الوجودى على القلق القومى، وتحويل حرية الاختيار الفردية إلى اختيار حرّ للالتزام القومى.

مما لا شك فيه أن صفدى صاحب عقيدة يريد نشرها، كما كان صاحب فلسفة يستخدمها لدعم عقيدته. ولم يكن من السهل دوماً الجمع بين فلسفته وعقيدته؛ لأن الأولى مستوردة وتركز على الفرد باعتباره وحدة منفصلة عما حوله؛ أما عقيدته فكانت قومية جذورها ضاربة فى تاريخ أمته وفى حاضرها وفى مستقبلها. وإذا كان صفدى قد نجح فى توظيف بعض الأفكار الوجودية فى خدمة معركته القومية فإنه لم يوفق فى توظيف أفكار أخرى. وهذه النتيجة وصل إليها حسام الخطيب عندما يقول: «وعلى الرغم من عمق إدراك الكاتب لصعوبة التوفيق بين التحرر المطلق والانتماء، وبين الفردية والقومية، وبين تجربة الانعتاق ومستلزمات التأطر الجماعى، وعلى الرغم من محاولته البارعة المستمرة لمصالحة النقيضين، فإن قومية كريم لم تنسجم مع وجوديته وبدت مكشوفة مصطنعة، بل بدت أحياناً مدسوسة عليه، ولا سيما فى مواقف الوعظ التى يناقض بها نفسه، وفى فوراته القومية ويقينه القومى الذى لا يتناسب مع إعادة النظر والانسحاب.» (الخطيب، ١٩٩١م: ١٢١)

إن الالتزام يتطلب تضحية بالذات. فإذا كانت الحرية هى أساس الوجود الإنسانى، فكيف يمكن الالتزام كاملاً دون الانفصال عن الأنا الفردية وفكرة الحرية المصاحبة لهذه الأنا؟

«وقد تكون تجربة سارتر فى هذا المجال مفيدة، لأنها توضح بعض الغموض فى أدب صفدى. لم تمتع الوجودية سارتر من الاقتراب من الفكر الماركسى والالتزام السياسى والمشاركة فى مظاهرات العمال فى فرنسا.» (مهرين، ١٣٤٣ش: ٣٧-٣٦) إنه حاول التوفيق بين الماركسية ومبدأ الحرية الفردية، بل سعى إلى دمجها فى مذهب واحد. وقد تجسّد هذا فى معظم أعماله؛ فمثلاً هوغو فى "الأيدى القذرة" هو النموذج المثالى لهذا التوافق، كما كان حال هودرر، المناضل الصلب الذى يعارض القيم المجردة والفردية للشباب المثقف هوغو قبل انخراطه فى صفوف الحزب الشيوعى الفرنسى. أما برونو

فى "سن الرشد" فقد وجد نفسه وحرية عند مقاومته للاحتلال الألماني: «لقد استعاد حرية من التزامه العميق.» (سارتر، ١٣٥٢ش: ١٤٠) ولو تعمقنا أكثر لوجدنا أن التزام شخصيات "صفدى" كان صدى لنداء برونو: «ماذا تنفع الحرية إذا لم تكن من أجل الالتزام.» (المصدر نفسه: ١٣٨) «فالالتزام العام لا يقضى على خصوصية الفرد، ولكنه يغطى سوابه وتناقضاته.» (صفدى، ١٩٦٠م: ٢٤٨)

«بالإضافة إلى ذلك فإن صفدى كان ينشد هذه العلاقة الحتمية بين الإنسان والعالم. وهو فى الوقت الذى سيرفض فيه استقلال طرف عن آخر فإنه يرفض ذوبان طرف فى آخر. ومن خلال العلاقة الحتمية بين الذات والعالم، فإن كلية أساسية تفرض نفسها على المفكر والأديب والإنسان العادى. وإن كل تحديد خارج هذه العلاقة سيؤدى إلى تجريد فارغ، أو إلى مادية عمياء.» (صفدى، ١٩٦٤م: ٥) بمعنى آخر من يريد أن يهتم بالمشكلات الاجتماعية والسياسية عليه أولاً أن يأخذ شعوراً بذاته، ومعرفة الذات تفترض معرفة الآخر والعمل معه ومن أجله.

«هيفاء: ها أنذا أمامك عارية تماماً إلا من نفسى ومن وحدتى الصافية. نبيل: يجب عليك لكى تستطيعى بلوغ أعلى درجة من التوحد، أن تكونى قادرة كل لحظة على التخلّى حتى عنى.» (صفدى، ١٩٦٠م: ١٦٨) هذا الحوار بين رجل وامرأة فى رواية "جيل القدر" يفسر إصرارهما على الاحتفاظ بحريتهما على الرغم مما يجمعهما. ويذكرنا هذا الحوار بالحوار السارترى وطريقته فى معالجة مسألة الحرية. ولقد انطلق سارتر فى اعتباراته الفلسفية من الإحساس الفردى. ولهذا فإن قيم سارتر تهتم بالدرجة الأولى بالفرد. وعلى الرغم من ذلك، لم يتردد فى الانخراط فى فعل يحصّر الحرية الخاصة ضمن حقيقة مادية وجماعية. لأن الحرية كانت تعنى بالنسبة إليه أن آخذ شعوراً بموقفى أولاً لكى أستطيع أن أتجاوزه. وفى المعنى نفسه فإن أى التزام حر يعد ضرورياً لكى أستطيع أن أوكد ذاتى كسيد حرّ لأفعالى. هذا يعنى أن الروح الجماعية والرغبة فى الالتزام تولدان داخل الإحساس الفردى.

«إن طريق ماثيو بطل سارتر فى "سن الرشد" يجسد هذه المعرفة المتطورة لمثل هذه القيمة: يكتشف الحرية باعتبارها الأساس الوحيد لوجوده الشخصى والضرورة الأخلاقية

لمتابعة هذه الحرية إلى النهاية، يعى وجوده الفردى والجماعى فى الوقت نفسه، ويعرف أن حريته تكمن فى التزامه.» (سارتر، ١٣٥٢ش: ١٢٨) إن حالة ماثيو تشهد على محاولة سارتر التوفيق بين الحرية الفردية والحرية الجماعية. وقد اتكأ صفدى فى ذلك على سارتر خاصة عندما يعلن أحد أبطاله: «لن يتضح هدف المناضل العربى إلا عندما ينطلق من مشكلة الفرد بالنسبة لذاته إلى مشكلة الفرد بالنسبة لأمته.» (صفدى، ١٩٦٠م: ٣٧٧) «إن الإحساس الفردى إذن، هنا ضرورى لامتلاك الحرية التى تعد أساس كل التزام حر. لأن الإنسان يكتشف من خلال حريته اعتماده النسبى على حريات الآخرين، وهكذا يجب أن يمتلك الآخرون حريتهم من أجل أن يصل هو إلى حريته. العلاقة جدلية إذن بين الحرية الفردية والحرية الجماعية. هذا لا يعنى أن الحرية التى هى جوهر الإنسان من وجهة نظر وجودية، تعتمد على الآخر، ولكن منذ أن يحصل الالتزام الحر، فإن الإنسان مجبر على إرادة الحرية للآخرين بالإضافة إلى حريته؛ ولا يمكن أن يعد حريته هدفاً دون أن تكون حرية الآخرين كذلك.» (سارتر، ١٣٦١ش: ٦٨-٦٩) هذا هو المشكلة الرئيسية التى يطرحها صفدى منذ الثلث الأول من رواية "جيل القدر" على لسان بطله نبيل الذى يقول لهيفاء الراغبة فى أن تكون سيدة وجودها فحسب: «لكى تمارسى حريتك يجب أن تحررى العالم، وتبدأى تحريرك هذا من الخلية الأولى التى لك من العالم. من قومك.» (صفدى، ١٩٦٠م: ١٧٠)

النتيجة

بناءً على هذا المقال نستنتج أن مطاع صفدى يعتبر تلميذاً لسارتر فى فكرة الحرية، ولكى نفهم معنى الحرية عند صفدى من الأفضل أن نعود ونستند إلى سارتر وأفكاره فى هذا المجال.

الإنسان عند صفدى حر وهو الخالق المطلق لقيمه كما نرى عند سارتر، وهو لكى يعيش حراً ويمارس إنسانيته كاملة دون انتقاص عليه أن يثور ضد كل سلطة دينية، أو عائلية، أو ثقافية يمكن أن تعيق تحرره. وعليه أيضاً أن يجتاز العوائق المادية والروحية وأن يحرر نفسه من القيم المتوارثة والميتافيزيقية، وأن يتخلى عن كل مطلق خارج عن إرادته؛ ينتج عن ذلك المسؤولية الكاملة للإنسان تجاه حياته وقدره. فهو حر فى اختياره، وعليه

أن يلتزم بهذا الاختيار ثم أن يكون مسؤولاً عن خياره؛ لأن فكرة المسؤولية لا تنفصل عن الحرية. صحيح أن هذه الحرية والمسؤولية المترتبة عليها تثير القلق للإنسان إلا أن هذا القلق الوجودي إيجابي وبناء بحيث يدفع صاحبه إلى حسن الاختيار.

الحرية عند صفدي لا تعني الانفصال عن الآخرين والكاتب لا ينفي العلاقة معهم نفيًا تاماً، بل هو كسارتر يراها أصيلة بمقدار ما تترك الأفراد أحراراً لكي يبرزوا ما في شخصياتهم من تفرد؛ فلا سبيل إلى بناء جماعة أصيلة إلا بكسر طوق الوجود المشوه مع الآخرين.

لا يعتقد سارتر ولا صفدي بأى تناقض بين الحرية الفردية والالتزام الجماعي، وبما أن الوجود البشري هو "وجود -في- العالم" فيمكن أن يجمع بينهما؛ الحرية تعنى أن الإنسان يأخذ شعوراً بموقفه أولاً لكي يستطيع أن يتجاوزه. في هذا المجال فإنّ أى التزام حر يعد ضرورياً لكي يستطيع أن يؤكد ذاته كسيّد حرّ لأفعاله. نتيجة لذلك فالروح الجماعية والرغبة في الالتزام تولدان داخل الإحساس الفردي. في موضوع الحرية، الفرق الوحيد بين صفدي وسارتر هو أن حرية سارتر تنطلق من الحاجة الفردية، في حين تكون الحرية عند صفدي حرية جماعة ولكن الحريتين لا تتناقضان بل تقربان الكاتبين من فكرة الآخر. والسبب أن الحرية الفردية جزء من الحرية الجماعية، والجماعة لا يمكن أن تتحرر إذا كانت حريات الأفراد ناقصة، ولهذا لا يفصل صفدي الهوية الفردية عن الهوية القومية.

المصادر والمراجع

- إبراهيم، زكريا. (١٩٦٣م). مشكلة الحرية. لاط. القاهرة: مكتبة مصر.
- استراتن، پل. (١٣٧٨ش). آشنایی با کیرکگور. ترجمه علی جواد زاده. لاط. طهران: نشر مرکز.
- الأطرش، محمود إبراهيم. (١٩٨٢م). اتجاهات القصة في سورية بعد الحرب العالمية الثانية. لاط. دمشق - سورية: دار السؤال.
- بدوى، عبدالرحمن. (١٩٨٠م). دراسات في الفلسفة الوجودية. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الخطيب، حسام. (١٩٨٣م). روايات تحت المجهر. لاط. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- _____ (١٩٨١م). الأدب المقارن. ج ٢. لاط. دمشق: مطبعة الإنشاء.

- _____ (۱۹۹۱م). سبيل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية. الطبعة الخامسة. دمشق - سورية: مطابع الإدارة السياسية.
- _____ (۱۹۷۳م). «نماذج من المزاوجة الوجودية - القومية في القصة السورية الحديثة». مجلة المعرفة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. العدد ۱۳۷. صص ۱۰۵-۱۲۹.
- سارتر، جان بول. (۱۹۶۴م "أ"). الوجودية مذهب انساني. ترجمة عبدالمنعم الحفنى. الطبعة الأولى. القاهرة: مطبعة الدار المصرية.
- _____ (۱۹۶۴م "ب"). الغنيان. ترجمة د. سهيل إدريس. لاط. بيروت: دار الآداب.
- _____ (۱۳۶۱ش). اگزیستانسیالیسم و اصالت بشر. ترجمه مصطفی رحیمی. الطبعة الثامنة. طهران: مروارید.
- _____ (۱۳۸۲ش). دست‌های آلوده. ترجمه جلال آل احمد. الطبعة الثامنة. طهران: انتشارات فردوس.
- _____ (۱۳۵۲ش). سن عقل. ترجمه محمود جزایری. الطبعة الأولى. طهران: انتشارات امیرکبیر.
- _____ (۱۳۵۳ش). مگس‌ها. ترجمه سیما کویان. الطبعة الأولى. لامک: انتشارات مازیار.
- _____ (لاتا). هستی و نیستی. ترجمه عنایت الله شکبیا پور. لاط. لامک: انتشارات شهریار.
- صفدی، مطاع. (۱۹۶۱م "أ"). الحرية والوجود. الطبعة الأولى. بيروت: دار مكتبة الحياة.
- _____ (۱۹۶۱م "ب"). تأثر محترف. بيروت: دار الطليعة.
- _____ (۱۹۶۰م). جبل القدر. لاط. بيروت: دار الطليعة.
- _____ (۱۹۶۴م). «سارتر بين الوجودية والماركسية». مجلة الآداب البيروتية. السنة الثانية العشرة. العدد ۱۲. صص ۴-۶ و ۷۳.
- غالب، مصطفى. (۱۹۹۰م). في سبيل موسوعة فلسفية. لاط. بيروت: دار الهلال.
- كامل، فؤاد. (لاتا). الغير في فلسفة سارتر. لاط. مصر: دارالمعارف.
- ماكوري، جون. (۱۹۸۲م). الوجودية. ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام. لاط. الكويت: عالم المعرفة.
- مردوك، آيريس. (۱۳۵۳ش). نقد و بررسى رمان‌هاى ژان پل سارتر. ترجمه م.ح. عباسپور تميجانى. الطبعة الأولى. طهران: انتشارات مروارید.
- مهرين، مهرداد. (۱۳۴۳ش). مكتب فلسفى اگزیستانسیالیسم. الطبعة الأولى. طهران: انتشارات آسپا.
- نصرى، عبدالله. (۱۳۷۵ش). خدا و انسان در فلسفه ياسپرس. الطبعة الأولى. لامک: انتشارات آذرخش.